

التقاسم القائم بين مصطلحي الاتصال و التواصل يردنا إلى الجذر و الداليتين اللغويتين في سياقهما الصرفي ، فوصل في اللغة العربية ، من معانيها ، البلوغ ( المعاني متعددة ، و اختيار دلالة دون غيرها اختيار مقامي ، حيث المقال بيداغوجي ) ؛ وواصل ، بزيادة الألف تعني المشاركة ، هذا الذي يعني أن العملية البيداغوجية في عصرنة فعلها ، أقصد المقاربة بالكفاءات ، تقتضي التفاعل بين المرسل و المرسل إليه ( الأستاذ و المتعلم ) ، التفاعل الذي يحتم التشارك و التفاهم ، مما يعني أن فعل البلوغ هنا ، هو فعل يحققه الطرفان تحقيقا أساسه العلوم الاجتماعية ، والتي تمت الإشارة إليها في المحاضرة الأولى " مكانة الاتصال في العلوم الاجتماعية " .

و إذا كان الاختلاف في الفلسفات و التصورات يفسح الرؤية في التباين الاصطلاحي ، فإنه و جب رد الدلالة الاصطلاحية إلى الدلالة اللغوية في تجلية طبيعة المضمون ، هذا الذي يعني أن عملية الاتصال و التواصل في جذرها اللغوي المشترك ( بلغ ) ، تفيد في السياق المدرسي البيداغوجي معاودة النظر في قراءة الاتصال و التواصل ؛ مما يعني أن العمليتين عملية واحدة لا تتجزأ في الموقف التعليمي البيداغوجي الخالص ، كون المجال هنا مجالا يتناول المرسل و المرسل إليه و الرسالة ، ووسيلة الاتصال / التواصل و الصدى و الأثر ؛ في غاية مشتركة تتجلى في اتفاق و تفاهم عقليين ، فالمتصل يتصل بناء على الرهانات التي ذكرت سلفا ، هذه الرهانات التي تجعل من الطرف الثاني حاضرا حتما ( رهان الإعلام ، رهان التوقع ، رهان التأثير ... ) ، من أجل ذلك ، أرى أن تناول التواصل ، باعتباره يتضمن الاتصال الحتمي ، هو الغاية ، بقطع النظر عن :

- الفرد يخاطب الفرد .
- الفرد يخاطب الجماعة .
- الجماعة تخاطب الفرد .
- الجماعة تخاطب الجماعة .

هذا التفصيل الذي يؤشر إلى خصائص العملية التواصلية ، و التي اعتبار خاصيتها الاجتماعية ، لا يحصر اللغة أداة متفردة في هذه العملية ، إذ ينبغي ، وبناء على الدراسات السيميائية ، تجاوزها إلى كل ما يخدم وصول الرسالة ؛ من أجل ذلك التفرقة بين اللفظي و غير اللفظي في التواصل البيداغوجي أمر في غاية القيمة .

## التواصل اللفظي / الالفاظي

يعنى اللفظ بالكلمات في نقل الرسالة ، بشكليها المكتوب و غير المكتوب ، ويتوقف تحقق المعنى من الاتصال / التواصل على المفردات و على نغمة الصوت وشدته مع المواقف ، ويكون الصوت مناسباً ، من حيث القوة والضعف ؛ فالمفردات و اختيارها في الشكل المكتوب يراعي المرسل إليه ، من احترام لقاموسه و معجميته ، و احترام سياق موضوع الرسالة ، خاصة إذا ارتبط سياق الاتصال و التواصل بالمدرسة . فالبيداغوجيا تعتبر خصائص الطفل النمائية ركيزة متينة في بلوغ الأهداف التربوية ؛ أما عن الشكل غير المكتوب في الاتصال / التواصل فيراعي عتبات الاحساس على مستوى الطرفين ، الباعث و مراعاة المكان و خصائص الصوت ، والأمر لا يختلف عند المستمع ، لاسيما ، وأن التواصل البيداغوجي الصفي لا يتوافر، بالضرورة ، في مواقف عناصرها متجانسة ؛ فالفروق الفردية على كل المستويات ، العضوية و غير العضوية ، تشكل فارقاً في عملية الاتصال و التواصل ، و إذا كانت الفروقات العضوية ( بيولوجيا و فيزيولوجيا ) تؤثر في هذه العملية ، سواء تعلق الأمر بالمرسل أو المرسل إليه ، فإنها على مستوى التنشئة الاجتماعية تؤثر بصورة تحتم استحضر البيئات الاجتماعية و خصائصها في مقام يسمح بمبدأ التكافؤ .

في عملية التواصل البيداغوجي لا يقتصر الخطاب و ارتداداته على سطحية الوعي ، فالتمثلات التي تتشكل لدى الفرد ( الطفل ) ، تتدخل فيها عوامل متشابكة ، تتحول عبر الزمن إلى قاعدة ، يفرض مقامها فك تواجح العلوم الواجهة في بناء المعرفة ( التحليل النفسي ، علم النفس المعرفي

(... ، بناء يجعل من التمثلات جوهرًا ؛ ويجعل من البيئة السوسيوثقافية مرجعية ، ذلك لأن التمثلات لا تخرج عن كونها تصورات سابقة تشكلت من موارد بفعل الاحتكاك البيئي.

يعني ، مما سبق ، أن الطبيعة المعقدة لفعل الاتصال و التواصل لم تعد تراهن على اللفظ وحده ، لذلك ، وباستجلاب علوم آخر ( السيميائية مثلا لا حصرا ) ، قد تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن الموضوع ، تتضح الضرورة إلى التواصل غير اللفظي ( لغة الجسد ) ؛ فلغة الجسد تنقل جانبا كبيرا من الرسالة عبر الإيماءات ( Gestes ) ، الوضعية ( Posture ) ، لغة الأيدي ( Haptique ) ، لغة العيون ( Optique ) ، القرب المكاني ( Proxémique ) ، لغة الشفاه ( Labique ) ، لغة الألوان ( Chromatique ) ؛ وبعيدا عن المشاحة في الاصطلاح ، بين اللفظي و الضمني ، يقدم الكاتب محمد الأمين موسى أحمد في مؤلفه " الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم " تعاريف الاتصال غير اللفظي لأعلام ( Fernando Poyatos , Albert Mehrabian , David Givens , Laurel Dunn , Ronald Adler , George Rodman Burgoon .... ) ، يصل من خلالها إلى أن الاتصال غير اللفظي هو إرسال الإشارات بكل أنظمة الإشارات الجسدية غير المعجمية و الاصطناعية و البيئية غير المحسوسة ، ضمن ثقافة ما ، مع استثناء لغة الصم البكم ، مشيرا إلى أن بعض الكتب ترى أن تسمية " غير اللفظي " تناسبها عبارة " الضمني " ، حسب وجهة نظر البرت مهابيان ، باعتبار الخضوع للقواعد في ما هو لفظي / غير لفظي ، عكس الضمني الذي يفتر إلى مثل هذه القواعد ؛ يتضمن تحليل تعاريف التواصل غير اللفظي الإرسال و الاستقبال دون الكلمات ، وواسطته في ذلك ، التعبيرات ، الإيماءات ، الهيئة ، نبرات الصوت ، موضعة الجسد في الفضاء ، تصميم المنتجات ، وكل ما له علاقة بالحس ( السمعية ، البصرية ، اللمسية ، الكيمياوية ) . ليتبنى تعريفا موسعا : هو الرسائل التواصلية الموجودة في الكون الذي نعيشه ، و نلقاها عبر حواسنا الخمس ، ويتم تداولها عبر قنوات متعددة ، وتشمل كل الرسائل التواصلية حتى تلك التي تتداخل مع اللغة اللفظية والتي تعتبر من ضمن بنيتها ، وتتجلى رسائل الاتصال غير اللفظي عبر سلوك العين ، وتعبيرات الوجه ، والإيماءات ، وحركات الجسد ، وهيئة الجسد و أوضاعه ، والشم ، واللمس ، والذوق

، والمسافة ، والمظهر ، والمنتجات الصناعية ، والصوت ، والوقت ومفهوم الزمن ، وترتيب البيئة الطبيعية و الاضطناعية.

تفود هذه التعاريف إلى بحث النظريات التي تؤسس إلى علمية التواصل ، لاسيما ، وأن الدراسات المنتظمة للمعرفة و فروعها تقتضي مناهج و منطلقات لها ، تتراوح نظريات التواصل غير اللفظي بين مسميات لها ، ومسميات تعود لأصحابها ( نظرية التوازن ، نظرية مهرابيان نسبة إلى البرت مهرابيان ، نموذج الانتهاكات غير اللفظية المتوقعة ، نظرية التفاعلية الرمزية ، نظرية الإدارة المتناسقة للمعنى ... ) :

- نظرية التوازن ؛ أساسها أن التفاعل بين الأفراد قائم على تحديد لمعدل من المودة بينهم ، ووسائل التعبير عنها ، تستخدم فيها المسافة ونظرات العين و الابتسام ، والإيماءات اللفظية و غير اللفظية ؛ ويؤخذ على هذه النظرية ( التي قدمها أركايل ( Argyle ) و دين ( Dean ) غير الدقة ، مما أبان عن طرح نموذج الإثارة ، حيث التغيير في سلوك طرف يؤدي إلى إثارة الطرف الثاني .
- نظرية مهريبيان ؛ رغم الانتقادات التي طالتها لحجج منهجية ( شروط التجربة ، العينة ، ... ) ، إلا أنها تفتح زاوية بحث ، أراها ، تنشغل بالدراسة الإحصائية للتعبيرات الحاصلة ، في ردها إلى اللفظ أو اللالفظ .
- نموذج الانتهاكات غير اللفظية المتوقعة ؛ وتقوم على اقتراح مكونين لجودي بوجون ( Judee Burgoon ) ، مكون المسافة ( الفاصلة و الخاصة ) والحركة ( الواعية و غير الواعية ) ، مع اعتبار متغير الثقافة في التحليل.
- نظرية التفاعلية الرمزية ؛ نظريه مددها هربرت بلومر ( Herbert Blummer ) من أفكار جورج هربرت ميد ( George Herbert Mead ) ، وتمس احساس الفرد بذاته ، والوصول إلى تحديد الكينونة و الغير باستخدام الروابط بين المعنى واللغة والفكر .

- نظرية الإدارة المتناسقة للمعنى ، وترد التواصل غير اللفظي إلى البنية أو التركيبية الاجتماعية ، وجوهرها الحقيقة التي يشكلها كل فرد لنفسه ويديرها ( أحمد ، 2003 ).

ينطرح التساؤل في مناقشة قنوات التواصل غير اللفظي ، في استحضار للغة الجسد في البيئة التي نعيشها ، في تواز لا يقل أهمية عن اللسان ، حيث نجد الضرورة الملحة و غير الواعية لاستعمال حركات الحواس في تبليغ الرسالة ؛ البحث في هذه القنوات سبق دراسات كثيرة ، مثل دراسة تشارلس داروين ( Charles Darwin ) في تناول تعبيرات الوجه ، و نعوم تشومسكي ( Noam Chomsky ) في علم الحركة ، و الأنتربولوجي إدوارد هول ( Edward T . Hall ) في اللغة الصامتة ، وكيفية تأثير العوامل الثقافية في الفرد بطريقة خفية ودون أن يدري ... و مايكل أركايل الذي صنف قنوات التواصل في :

- الاحتكاك الجسدي .
- التوجه .
- هيئة الجسد .
- الإيماءات .
- حركات الرأس .
- التعبيرات الوجهية .
- حركات العين .
- المظهر .
- المظاهر غير اللفظية للكلام .

قنوات تسعف في التساير مع التواصل اللفظي في قصوراته التي ترتبط باللغة و الثقافة .

